قياسا على معطيات الظروف التي كان يغنى فيها ، اثناء الحروب الصليبية قبل ان يرقد الشعر العربي في فترة سبات طويلة ، ليصحو بعدها على نبض الحضارة الحديثة ، تبعث الدفء في أوصاله ، فيجد نفسه في ظلام العثمانيين وتحت كابوسهم الثقيل ويتململ الشعراء والناس نيام ، يؤازرون حركة الاصلاح والنهضة الفكرية التي دعا اليها الرواد في الشرق العربي . وما كاد العرب يرفعون عن صدر حياتهم الكابوس العثماني حتى اخذ مكانه كابوس الاستعمار الاوروبي في ظروف الحرب العالمية الاولى . وقد وسم شعر هذه الفترة المبكرة بسمة الشمول والدعوة الى اليقظة والتنبه والوعي ، ووجد نفسه امام مقاومة الطغيان والظلم من قبل الحكام المفروضين في ظلال السيطرة الاجنبية ، وامام مقاومة عوامل التخلف التي يدعوهم الوعي الجديد الى نبذها والتعلق بركب الحضارة الحديثة ، وامام محاولات سحق الشخصية العربية وقتل لغتها القومية وانتقاص قيمتها ، فراح يدعو ويبشر منذ وقت مبكر بدعوة القومية وآمال الوحدة . ونستطيع ان نتلمس ملامح المقاومة ، مهما كانت هزيلة احيانا ، في شعر هذه الفترات الوطني والقومي والسياسي ، وان نجردها عما خالطها ، في الغالب ، من عناصر اخرى قد لا تتصل بمفهوم المقاومة عن قرب .

وعلى الباحث في شعر المقاومة العربية بعامة ، والفلسطينية بخاصة ، ألا يتسرع ويخدعه مفهوم المقاومة ، كما بيناه في الشعر الاوروبي ، والمحدد بظروفه المعينة ، فينساق في تطبيقه على شعرنا ببساطة وحسن نية ، او بخبث وسوء نية ، اذ يجب ان نأخذ في الاعتبار ظروف حياتنا وقضايانا التي نقاوم من اجلها ، بدون ان نتناقض مع ذلك المفهوم الذي ينطبق على بعض مراحل حياتنا وظروفها . ونحن لا نوافق على تضييق مفهوم المقاومة الى حد التعامي عن ظروفها وظروف شاعرها والانسان من حوله . فالمجتمع العربي ، في عمومه ، مجتمع زراعي متخلف ومحجور عليه ، حكمته وما زالت تتحكم في كثير من اجزائه فئات اقطاعية توالي الاستعمار ، وتضخم التناقضات في بنيته البشرية احكاما لخنقه واخضاعه باستمرار لقوى التخلف والاستعباد في الداخل والخارج ، ثم هو مجتمع يفتقر الى القيادات الفكرية والروحية الغنية التي يلغى باستمرار دورها في محاولة انتشاله من ظلم الحياة وظلامها . ومع مواطن العقم العديدة المصاب بها هذا المجتمع ، فان عليه ان « يستوعب عدة مراحل حضارية في فترة قصيرة زمنيا ، وهو تحت ضغط ظروف مصيرية لا يستطيع الانتظار ، بل ، هو على العكس ، مدعو بالحاح الى تجاوز هذه المراحل وتخطيها » [٢] . ومن هنا كانت تناقضات المثقفين العرب وتمزقاتهم ، وهم يرون مجتمعاتهم ميادين صراع بين قيم الاقطاعية والبرجوازية الى جانب الاستبداد الداخلي والتسلط الاجنبي من نحو ، وبين القيم الحقيقية التي ترنو اليها الأمة في التحرر والاشتراكية والوحدة من نحو آخر ، بدون ان يستطيعوا فعل ما يقدرون عليه في خدمة أمتهم وتحقيق آمالها ، فيعيشوا حالة الانفصام الحاد بينهم ، كذوي كلمة ، وبين بعض ذوي السلطان الذين يغلون ايديهم ويخنقون اصواتهم ليقتلوا فيهم الفكر ، ويئدوا الكلم ثم يروحون بنفوذهم السياسي ، وبقوة اجهزتهم الاعلامية يعكسون الحقائق ، فيحملون الادب والفن واصحابهما مسؤولية تأخر الأمة الذي يكرسونه هم باخلاص وتفان ، وفشلها الذي يزرعونه بأيديهم وان فرضوا عليها حصاد سنبلة .

هذه الظروف ، مع ما يمكن ان يكون هناك سواها ، مما خضع ويخضع لها المواطن العربي ، كما خضع لها معه ابن فلسطين في منافيه ومناطق تشرده العربية منذ نكبة عام